نظامنا الاجتماعي

(١٥) الحرية والدين الاسلامي

قد أتينا في المقالات الآنفة على الحرية وعلى علاقاتها بالنظام والاخلاق والعقول والفنون والعلوم والتعلم والتعليم وشئون الحياة . واليوم نبين للقراء علاقة الحرية بالدين الاسلامي في كل اولئك. وما حفزنا إلى هذا المقال سوى مقصدين

(١) أن ندحض الفرية التي افتراها علينا فريق من الناس في أن الحرية لا تتفق مع الدين

(٢) أن نبين أن الدين قد جاء بالحرية في اوسع معانيها دونها حرّيات العصر الحاضر وأنهُ المثل الأعلى للنظام الاجتماعي والمنهاج العظيم للاصلاح البشري

يأمرنا الإسلام أن نسدل ستاراً كثيفاً على معتقدات مخالفينا في الدين و يحضنا على معاملتهم بأنواع الرفق وصنوف الإجلال ومكارم الاخلاق قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين) و ينهانا عن أذاهم ومعاكرتهم ومعاندتهم قال عليهِ الصلاة والسلام (من آذى ذميًّا فانا خصمهُ ومن كنت خصمهُ فقد خصمتهُ يوم القيامة) وقال (من قذف ذميًّا حُدَّ لهُ يوم القيامة بسياط من نار)

وإذا كانت المساواة هي ثمرة الحرية فالإسلام يلزمنا أن نساوي بيننا و بين مخالفينا في العقائد أمام القانون و يزجرنا أشد الزجر على اهتضام حقوقهم وذلك عدل لم يسبق لهُ مثال في تاريخ أمة من امم الارض

أنبأنا التاريخ أن يهوديا اشتكى علياً كرم الله وجههُ لامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ وعلي كما لا يخفى حمو عُمَر وابن عم رسول الله وزوج ابنتهِ وفارس عدنان وموضع إجلال المسلمين فقال لهُ عمر قم يا أبا الحسن فاجلس امام خصمك ففعل وقد تمعّر وجههُ فلما انتهى عمر من قضائهِ سألهُ قائلاً أكرهت يا علي أن تجلس امام خصمك قال لا ولكني امتعضت لكونك لم تلاحظ المساواة بيننا بقولك لي يا أبا الحسن (لان الكنية تشير الى تعظيم) . قل لي برينك هل ورد في تاريخ بني آدم مثل هذه المساواة أمام

القانون بين احد عظماء امة عظيمة يهز اسمها عروش الملوك والقياصرة وبين رجل من السوقة غريب عن ديانتها

وهذا تاريخ الامم يخبرنا ان هذه الغاية في المساواة لم تكن بين الطبقات المختلفة في الامة الواحدة مذ زمن قريب بما يحدونا إلى الاعتقاد بان هذه العدالة سبق بها الإسلام وحده منذ كان

كانت العدالة وهي غاية الحرية في الامم القديمة المتحضرة اسمًا بلا جسم وكانت العقوبات تتنوع وتختلف باختلاف الرتب والالقاب اما الشعب فكان تحت رحمة ساداته الأعلين . اما المساواة التي يتبجح بها فلاسفة هذا العصر فهي بنت الثورة الفرنسية. قال لاروس في دائرة معارفه (إن العقوبات في روما [دار الشرائع] كانت تختلف دائمًا في الجنايات المتشابهة باختلاف حالة المجرمين واقدارهم ثم ذكر انواع ذلك الجور وانتقل من قانون روما إلى قانون فرنسا قبل الثورة الفرنسية والصق به مثل هذا الجور في قواعد العدالة)

كان الجيش الاسلامي يفتح البلاد المخالفة له في الاعتقاد فيبذل عنايته في تأمين الناس على دينهم ومعابدهم متعهداً لهم بحمايتهم والدفاع عن ذمارهم وبحفهم الحرية في اعمالهم وآرائهم واجراء شعائر دينهم ولا يحول بينهم وبين عادة او نحلة أو شرعة . وكل اولئك إطاعة لقانون الإسلام (لا نفرق بين احد من رسله) وبلغ من تسامح المسلمين الفاتحين أن تدق نواقيس الكنائس بجوار مآذن المساجد ولا تحرك منهم ساكنًا او تثير موجدة والدولة دولتهم وهم اولو قوة واولو بأس شديد فلم يجبروا على حرية الاديان مثل ما فعلت الامة الاسبانية بالامة الاسلامية ومثل ما فعلت الرومان بالامم التي كانت تحكمها

واذا كانت الامم المتحضرة الآن قد بنت وقيها العقلي والخلقي والمادي على أساس الحرية فاننا نستبرهن بالبراهين القوية على ان الاسلام مع كونه لا يعارض تلك الحرية التي رفعت الغرب من وهدته فانهُ يحتوي على نصيب منها لا تشبّه به حريات العالم على تنوعها إلاّ كما تشبّه الدرر بالخزف

فها نحن اولاء ننظر الى ما يقول الإسلام في حرية [النفس] لنثبت لقادة الحكمة أن كل النظريات التي يفتخر بها علماء هذا القرن ما هي الاّ صدى الصوت الذي رنّ بين شعاب مكة والمدينة مذ اربعة عشر قرنًا فنقول جاء الاسلام واضعًا لأساس المساواة بين الجنس البشري بقوله تعالى (يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبًا

وقبائل لتعارفوا) — وبقوله عليه الصلاة والسلام (إن الله قد اذهب بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم لان الناس من آدم وآدم من تراب وأكرمهم عند الله اتقاهم) فاتى بذلك كل فضل يمكن أن يدعى بكرم المحتد أو يسعة في الرزق او بانتساب الى عشيرة الى غير ذلك من دواعي الامتياز . وقد جعل التمايز بالمزايا والاعمال لا بالاقوال فقال تعالى ان أكرمكم عند الله اتقاكم. وقال وان ليس للانسان الا ما سعى — وقال عليه الصلاة والسلام (يا عباس ويا صفية عمّ النبي ويا فاطمة بنت محمد انى لست أغنى عنكم من الله شيئاً ان لي عملي ولكم عملكم) لهذا وردت الاوامر والنواهي موجهة الى الناس جميعاً على السواء . اتدرى ما نتيجة ذلك التشريع — نتيجة المساواة وهي المبدأ العظيم لمعرفة الحقوق والواجبات وهي غاية الحرية والسعادة والهناءة. قال بونابرت (المساواة هي ينبوع كل عدالة سواء أكانت بين الشعوب ام بين الافراد) .

وبينما كان المسيطرون على الامم يصيحون في وجوه رعاياهم قائلين أطفئوا نور العقل اغمسوا عين البصيرة فان الدين ينافي العقل كان الدين الاسلامي ينير السبل للعقول ويأمر بالنظر والتفكير والاعتبار والآيات كثيرة في القرآن وحسبنا ان نشير الى رءوس منها . او لم يسيروا في الارض . فاعتبروا يا أولي الابصار . وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . افلا يتدبرون القرآن ... ومثل هذه الآيات البينات فتح الاسلام للعقول ابواب العلوم وارام ان طلبها والسعي في اكتسابها هو من اعظم ما يعبد به الله عز شأنه. قال عليه السلام افضل العبادة طلب العلم. وقال نظر الرجل في العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة) وقال (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها انّى وجدها) وتلك حرية العلوم والعقول

اما اساس الحكومة الاسلامية فالشورى قال تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وقال لرسوله المصطفى (وشاورهم في الامر)

وقد نهج الخلفاء الراشدون هذا المنهج فعملوا بما جاءت به الشريعة وجعلوا الامة رقيبة عليهم. روى ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب خطب الناس فقال (من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقومه) فقال بعض الاعراب والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا فقال الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه . وهذه غاية لما تصل اليها أرقى جمهورية في عصرنا الحاضر ؟

عبد الرحيم محمود
المدرس بمدرسة المعلمين الثانوية